٣

كيف قام برحلاته كلها دون مال ؟

أخطار الرحلات والأسفار فى الماضى

قلنا إن ابن بطوطة علَّل خروجه للرحلة برغبته فى أداء فريضة الحج ، وقلنا إن ذلك كان مجرد تعلَّة سترت عن عينيه شوقه الشديد إلى السفر والتنقل فى البلاد ، لأن السفر وتجشُّم متاعب الرحلة لغير غاية واضحة يعترف بها المجتمع لم يكن شيئاً مفهوماً فى تلك العصور .. ولعل الرجل لو قال - كما نقول نحن اليوم - إننى مسافر للنزهة أو الفرجة أو الترويح عن النفس لاستقلُّوا عقله ورموه بالحمق وسوء التصرف ! لأن السفر فى تلك العصور لم يكن متعة ولا راحة ولا نزهة ، إنما كان مغامرة بالنفس والمال ، فما كانت هناك طرق مواصلات مأمونة ، ولا كانت هناك وسائل للراحة !

ومن أهم ما تنبغى ملاحظته أن الحكومات فى تلك الأعصر كانت شديدة الوطأة على المسافرين ؛ فكانت تتقاضى منهم الضرائب والمغارم والرِّشَا على الدخول والخروج ومعابر الأنهار ، ومع هذا فلم تكن تضمن لهم السلامة ، لأن القبائل كانت فى حاجة إلى مرور القوافل بأراضيها، فتجلب لها ما تحتاج إليه من سلاحٍ وماعونٍ وسُروجٍ ولُجُمٍ للخيل لا ينتجونها فى الصحراء ولا يستغنون عنها ، وتحمل عنهم ما زاد من إنتاجهم المتواضع من الصوف والجلد والملح وما يكون فى أرضهم من شىء نافع كالشَّبِّ والكلس أو العشب النافع للعلاج وما إلى ذلك ، ولهذا كان شيوخ

القبائل يحرصون على سلامة القوافل ورجالها ، ويصحبونهم فى سيرهم فى أراضيهم حتى يُسلموهم لحماية من يليهم .. وهكذا .

وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل .. فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجرٍ ، يبيع ويشترى ويسد نفقات الرحلة على الطريق؟

الجواب عن هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحى الحضارة الإسلامية ، وهى ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم فى المحافظة على وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام .

حقيقة تاريخية تؤيدها رحلة ابن بطوطة : وحدة عالم الإسلام

ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهى وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا. ورحلة ابن بطوطة - مثلها فى ذلك مثل كل كتب أدب الرحلات العربية - توضح لنا هذه الحقيقة بأجلى بيان ؛ فهذا الرجل قطع العالم الإسلامى كله من المغرب إلى إندونيسيا (التى يسمِّيها بلاد جاوة أو سُمَطْرة) وجزر الفلبين (التى يسمِّيها بلاد طوالسى) والجاليات الإسلامية فى مدن السواحل الشرقية والجنوبية فى الصين ، وتمادى فى الرحلة حتى دخل بكين . هذا الرجل قطع هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد فى كل مكان مَنْ يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا على سبيل التكرُّم والتفضُّل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخُّل الدولة ..

ذلك هو نظام الزوايا والمدارس والرُّبُط (جمع رباط) وهى دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تُجمع لهذا الغرض .

شبكة الزوايا والمدارس والرُبط تغطى عالم الإسلام

وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه . وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه ، المسافر على الطريق الذى يحتاج - إلى جانب الطعام والمأوى - إلى أن يشعر بأنه بين أهله وإخوانه فى أى ركن من أركان عالم الإسلام كان، وقد أحصيت ست آيات على الأقل فى القرآن الكريم أوصى الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً فى أموال الناس ، ففى الآية ٢١٥ من سورة البقرة مثلاً تقرأ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ، وفى الآية ٤١ من سورة الأنفال: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفى الآية ٦٠ من سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، ويتكرر النص على حق ابن السبيل فى الآية السادسة والعشرين من سورة الإسراء ، والثامنة والثلاثين من سورة الروم ، والسابعة من سورة الحشر ، ومواضع أخرى من الكتاب الكريم .

الإسلام وابن السبيل والزوايا

لهذا حرصت الأمة - وهى القيِّمة الحقيقية على الدين - على تنفيذ هذا التوجيه القرآنى العظيم ، فأقامت الزوايا والرُّبُط ودور الضيافة فى كل مكان . ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل على ذلك : فهذا الرجل لا ينزل بلداً إلا آوى إلى الزاوية أو الرباط ، ووجد فيه ما يتيسَّر من الإكرام ؛ ففى بعض الأحيان لايظفر إلا بالنوم وشىء من الزاد ، وفى أحيان أخرى يجد الطعام الطيب والمبيت المريح والحلوى ، ولكنه لا يُترك فى العراء أبداً ، وسنعطى أمثلة كثيرة على ذلك فى سياق هذه الدراسة .

وجدير بالملاحظة أن هذه الزوايا كانت أغنى وأحسن حالاً فى آسيا الصغرى وكل نواحى وسط آسيا من إيران إلى الهند ، لأن البلاد أغنى وعهد الناس بالإسلام فيها قريب ، ثم إن سكان هذه البلاد من أتراك ومغول وهنود كانوا يرحبون أشد الترحيب بمن يزورهم من العرب ، وخاصة إذا كان الزائر من أهل الفقه والدين . هنا يتجلى فضل الإسلام على الناس فى صورة باهرة ، فإن أولئك الناس كانوا يحرصون على إكرام العربى، لأن العرب قوم الرسول ﷺ، والصحابة رضوان الله عليهم منهم، والقرآن عربى ، فما يكاد الناس يرون فقيهاً عربيًّا حتى يُقبلوا عليه ويتنافسوا فى إكرامه.

وجانب آخر من جوانب التنظيم الاجتماعى الذى قامت به الأمة من تلقاء نفسها تكشف لنا عنه رحلة ابن بطوطة ، وهو أن الناس كانوا ينقسمون إلى مراتب وأصناف ..

تقسيم الناس إلى مراتب وأصناف

فأما « المراتب » فهم أصحاب الوظائف الفكرية والدينية ومن فى مستواهم من كبار رجال الدولة والتجار وأهل الأموال، وأما « الأصناف» فهم أهل الحرف اليدوية ، على اختلاف أنواعها ، من بنَّائين ونجَّارين وحدَّادين ونسَّاجين وصغار التجار والنواتيَّة (وهم عمال البحر) ومن إليهم. وقد تحدث مؤرخونا عن هذه المراتب وتلك الأصناف ، وذكروا أن أهل كل مرتبة وكل حرفة كانوا يكوِّنون فيما بينهم شبه نقابة أو رابطة ، فيتعاونون فيما بينهم ، ويكرم بعضهم بعضاً بدافع ذلك الرباط .

وكانت أصناف أهل الحرف أكثر ترابطاً ، لأنهم - فى العادة - كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية الكثيرة : من شاذلية وتيجانية ورفاعية وقادرية وجَزُولية ، وكانت العادة أن ينتسب أبناء الحرفة الواحدة إلى طريقة بعينها، وكانوا يسمُّون أنفسهم « العشيرة » وكان شيخ العشيرة فى كل بلد أشبه بأبٍ لأهل الحرفة ورئيسٍ مُطاعٍ لهم ، يلجأون إليه فى حل مشاكلهم حتى

الخاصة منها ، فيصلح بين الأزواج ، ويُعنى بتزويج اليتيمات ، ويراقب الأوصياء على اليتامى ، وكان سلطانه على أفراد عشيرته أقوى من سلطان الدولة .

وفى رحلة ابن بطوطة نرى براهين ذلك واضحة متعددة ؛ فهو نفسه سَلَكَ نفسه فى سلك القضاء ، لأنه - كما يقول - من بيت قضاء ، ثم إنه تولَّى القضاء أول مرة بعد خروجه من تونس مع الركب فأصبح يعدُّ نفسه قاضياً ، وصار لا ينزل إلا على القضاة ، فإذا نزل بلداً ولم يجد فيه زاوية أو رباطاً سأل عن القاضى ، ونزل عليه ، فإذا لم يجد كان نزوله على الفقيه ، فيجد الإكرام الذى يريد .

ونلاحظ طوال الرحلة كيف كان الناس يكرمون بعضهم بعضاً بروابط العمل والحرفية دون أن نلاحظ وجود طبقات اجتماعية ، وليس معنى ذلك أن الناس كانوا سواسية أو أن عالم الإسلام - كما نراه عند ابن بطوطة - كان مدينة فاضلة أو أُوتوبية ، فقد كان هناك فقراء وأغنياء ، وأقوياء وضعفاء ، ولكن الأمة كانت تجتهد فى إزالة هذه الفوارق وتحقيق المثل الأعلى الإسلامى بطريقة تلقائية ودون تكلُّف .

وهذا هو عالم الإسلام الآخر الذى تكشف رحلة ابن بطوطة النقاب عنه ، عالم أمة الإسلام .

عالم الإسلام الأول

أما عالم الإسلام الأول فهو عالم السياسة والحرب والصراع الذى تُحدِّثنا عنه كتب التاريخ ، وهو عالم بغيض لا ترتاح إليه النفس ، ويشعر الإنسان وهو يقرأ أخباره أن أمة الإسلام تسير فى طريق مخوف ، وعندما نقرأ رحلة ابن بطوطة ورحلات غيره فإننا نجد أنفسنا فى عالم واسع تسكنه أمة واحدة يربط بين أفرادها رباط الإسلام والمودة والإنسانية.

وهذه فضيلة كبرى من فضائل هذه الرحلة، فهى فى الحقيقة رحلة فى

عالم أمة الإسلام، رحلة فى صميم المجتمع الإسلامى نراه من خلالها على حقيقته ، وهـى حقيقة تسعد الإنسان ، وتشعره بـأن الدنيـا بخير ما دام الإسلام بخير .

وجدير بالملاحظة أن ابن بطوطة قام برحلته تلك بعد انقضاء قرابة القرن والنصف على زوال خطرى الصليبيين والمغول اللذين كادا يوقفان مسيرة الحضارة فى مساحات واسعة من عالم الإسلام ، ونحن إذ نمضى معه فى عالم الإسلام الذى أفلح فى بناء نفسه من جديد نجد أن جراح أمة الإسلام قد اندملت وأننا أمام عالم إسلامى جديد ولد بعد الكارثة وبنى نفسه ، وأقام السلام والأمان على أرضه . وكل ذلك بفضل الإسلام الذى جمع أمته وأنزل عليها السكينة بعد طول رَوْع وتدهور . والكثير من أمم الإسلام التى سيجدها ابن بطوطة مستظلة بظل الإسلام كانت حفدة أولئك المغول الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله ، فطواهم نور الله وهَدَاهم ، وأدخلهم الإسلامَ وجعلهم من خُدَّامه والعاملين على رفعته .

* * *